

صفحة تصدر بالتعاون مع الجمعية النفسية العراقية
iraqipa@hotmail.com

عقدة (الطابور) في الشخصية العراقية

الفرد العراقي مدمت على عدم الثقة بدولته ومصاب بعقدة الشك والتهمك نحوها



أجبال من العراقيين أضاعت زهور شبابها وكهولتها في الطوابير؛ طوابير الحا جبهات الحروب؛ وطوابير للبحث عن أسماء القتلى والمفقودين والمعدومين والمتكلمين؛ وطوابير عند أسوار السجون؛ وطوابير للحصول على فرصة عمل أو جواز سفر أو حصة تموينية أو صك مهلك يعوض عنها؛ وطوابير لتسلم دراهم الراتب التقاعدي؛ وأخيرا وليس آخرها طوابير للفوز بقرينة غاز أو بضعة أثار من النخط أو البنزين لإدامة ميكانكة حياتهم الباردة لبضعة ساعات إضافية.

ما هي طبيعة البناء النفسي لإنسان قضى معظم حياته يتنقل بين هذه الطوابير، وما زالت بانتظاره طوابير أخرى مجهولة الهوية؟ يتطلب الجواب تحليلا متأنيا لعقدة (الطابور)، بافتراض أنها أمست ركنا أساسيا ويوميا من سلوك الشخصية العراقية المعاصرة. ويستمد هذا الافتراض أحقيته من التعريف السيكولوجي لمفهوم (العقدة) Complex.

أو الكراهية أو الشعور الخفي بالذنب، تتخذ وظيفة استعداد لا شعوري مكبوت يقسر الفرد على أنماط غير سوية من التفكير والشعور والسلوك)). إن هذا التوصيف لمفهوم (العقدة) يجد صدى في سيكولوجية الفرد العراقي المتصلة بإدماحه على الطوابير طوال عقود من الأزمان والماسي، وما رافقها من ذكريات وأحداث وخبرات مؤلمة وصادمة. ومع ذلك، لا يجدر التسليم بصحة الافتراض أن عقدة (الطابور) قد استوطنت في النفس العراقية، ما لم يتم إخضاع هذا الافتراض لتشريح متعدد المباح والمجاهر والغايات:

طابور أم قطيع !!

الطابور (بمعناه الأزماطي) حشد من الغرياء عن بعضهم، يجتمعون لغاية صراعية أو خضوعية، بعد أن فشل النظام الاجتماعي بإيجاد حلول تعاونية أو عادلية لمشكلاتهم. وقد اقترن الطابور شرطيا في الذاكرة العراقية الجمعية بالأزمات المفتعلة، وبفساد ذم الحكام، وبالخوف من القادم، وبالعجز والتسليم بقدرية وبالعجز والتمسك بالقديم الماسي، وبالتهميش المبرمج لدور الفرد وقواعليه الاجتماعية، وبالأزراء الكامل للكرامة البشرية، من خلال خطف الانسان من نسقه الطبيعي وسط الحياة اليومية وزجه في طوابير تلغي آدميته وتدممه بختن القطيع. ويتحدد أشد، أصبح هاجس (القطيع) بدوره مقترنا شرطيا بمعنى الحياة نفسها. فلكي يحيا الفرد العراقي عليه

استوطنت (ثقافة الطابور) في العقل الباطن للعراقي فأصبح يتعامل بأسلوب (أزماتي) حتا مع الظروف الطبيعية

أن يتقبل فكرة أنه موجود قطيعيا لا إنسانيا، وإن الحياة بحد ذاتها في النهاية ليست أكثر من فرصة (كونية) يمارس فيها الانسان (قطيعيته) مخاطباً نفسه: المعنى أن تكون بلا معنى، وأن تحذف وقتك الشخصي المعيا بالخصوصية والتأمل والأختيار، لصالح زمن شمولي جبري تنحسر وسط طوابيره التي أعيها الحرمان والذلل وكر العياء! القطيع حقيقتك المدة لك سلفاً، أما فردانيتك التي تنشد، فحللم بقطة عابرا.

الغربة وسط الجيوم

وهكذا جرى استبدال المجتمع (بوظيفته الانتمايية الأمانة) بطابور موحش يكرس غربة الفرد وعزله التحليل النفسي بما يمكن أن واقطاعه النفسي عن الآخر الذي يجاوره، بوصفه منافسا أو ندا له، وفي أجنس الأحوال بوصفه غريبا تشبأ حد فقدان ذاتيا، وتسايلك مجازي

الاحساس بوجوده! فالمحشور في الطابور، ينتابه شعور بالوحدة ذو طبيعة مركبة. فهو وحيد وغريب وخائف ومشمئز وسط من يفترض أنهم ناسه وأقرانه في الهوية والمصير، وهو مقصي وعاجز ومخدول وغاضب وسط عالم يشعر أنه تأمر عليه ليفل حبل هذا الطابور حول عنقه، دونما ذنب يستحقه، فلا يكون أمامه إلا إطلاق تبرير انهزامي يخفف به لا معقولة مصيره، فيصيح الظلم بالعدل مسوغاً لآلامه بالقول: ((نستحق نحن العراقيين ما يحصل لنا، فولا ذنوبنا وأثامنا، ما اقتص الله منا بهذه الطريقة))!

أخدم نفسك بنفسك!

دابت الدولة العراقية منذ أربعة عقود وحتى اليوم، على دفع الفرد الى ادمان عدم الثقة بها، وسيجته بعقدة الشك والتهمك المرير نحو كل ما يصدر عنها، حتى غدا تفكيره الاجتماعي في معظمه بنية اضطهادية تتغذى على (نظرية المؤامرة) بوصفها المنطق الوحيد (الممكن) لتفسير بؤسه الاجتماعي وعزله الحضارية. فأصبح الطابور واحداً من مجالاته (الحوية) لتنفيذ حكمته (عقدته) الجديدة القديمة: ((أخدم نفسك بنفسك أيها العراقي))، والمستقاة من استبداد الدولة وفسادها على مدى عقود، ومن آثام الاحتلال وساديته في الحقبة الأخيرة، الى جانب مجالات أخرى ترتبط بالطابور ولا تقل عنه مأساوية، مثل اضطراب هذا الفرد الى: توفير الكهراية ذاتيا، وتقويم المياه ذاتيا، وتسايلك مجازي

الفضلات ومياه الأمطار ذاتياً، وتوفير الأمن الشخصي والعائلي ضد الجريمة بأنواعها ذاتياً، والاكتفاء في مجالات التعليم والصحة والمواصلات ذاتياً، وتوفير لقمة العيش ذاتياً باتباع ستراتيجية (المسطر)!

ثقافة الطابور

فماذا كانت نتيجة هذا المخاض النفسي؟ الطابور في السيكولوجيا الاجتماعية بنية مؤقتة، تستوجبها ضرورات المرشحة للظهور والتكرار باستمرار. غير أن كلمة السر للمباشرة الناجحة بعملية هدم هذه العقدة، تتمثل في المباشرة ببناء الصلة النفسية الأمانة بين الفرد من جهة والمجتمع والدولة من جهة أخرى، أي تنمية شعوره بالثقة والتصديق نحوهما. وهو شعور سيظل تحقيقه مرهونا بمدى نزاهة الساسة، وتعففهم، ومصداقيتهم، وقدرتهم على تجسير الهوة (ولو جزئياً) بين أقوالهم وأفعالهم. إن عملية اصلاح المجتمع العراقي، وإنها ودولة، تتطلب حرجاً جذرياً، وبناراً خصباً، وصبراً واعداً، لعقود طويلة قادمة، لكن ذلك لا يعني زج الفرد العراقي في طابور جديد عنوانه: (انتظار المعلقة)، بل يجدر التعجيل بإشاعة المناخات السياسية الملأمة لبعثه بتحسس جزئياً بأنه ليس رقماً محجوراً عليه في طابور جياح لا نهاية له تانه وسط حقول النفط، بل هو قادر على أن يطل برأسه وحتى أن يئنا بنفسه أحياناً عن صرامة هذا الطابور ليعض قلائق، ليشم عطر كرامة... لعلها قادمة!

فارس كمال نظميا

نقداً للفاشية

المشروع الثقافي الغربي في جوانبه الثلاثة: (فلسفي نظري، ونظم اجتماعية تاريخية، ونسق قيمي سلوكي) تؤلف جميعها أيديولوجية شاملة متماسكة تهدف الى تبرير التسلط، وجعله عقيدة وحيدة تغطي آليات القمع المتخصصة لواقع مستمد من جميع فعاليات هذا المشروع. وفي هذا الإطار حدد (هوركايمر) مهام النظرية النقدية بالاتي:

1- الكشف في كل نظرية عن المصلحة الاجتماعية التي ولدتها عن طريق استخدام التحليل النقدي.

2- تأسيس فهم جدلي للذات الانسانية يقوم على إدراك قوتها الحقيقية المتحولة وتأثيرها في الصراعات الواقعية.

3- تظل هذه النظرية على وعي بكونها لا تمثل مذهباً خارج التطور الاجتماعي التاريخي، فهي لا تطرح نفسها بوصفها مبدا أخلاقيا خارج صيرورة الواقع. والمقياس الوحيد الذي لتلزم به هو أن تعكس مصلحة الأغلبية الاجتماعية. وسعي الطبقات المتهورة في تنظيم علاقات الإنتاج في إطار نقد أيديولوجي يتيح للإنسان الكشف عن قدراته الأمامحودة وتقديم الحلول التي تساعده على تكوين وجود حقيقي.

4- التصدي مختلف اشكال اللاعقلانية التي حاولت المصالح الطبقة السائدة أن تلبسها للعقل، وأن تؤسس اليقين بها على اعتبار أنها هي التي تجسده، في حين أن

فكان نتيجة ذلك أن أسس ما سمي بـ (معهد الأبحاث الاجتماعية) الذي أفرز النظرية النقدية المعاصرة في (V) شباط 1923، وافتتح في حزيران 1924 بكلمة لمديره الأول (كارل غرونبرغ) أستاذ القانون والعلوم السياسية في جامعة فيينا، الذي تركز الاهتمام البحثي للمعهد في عهده على الاقتصاد والتاريخ. إلا أن تولى (هوركايمر) إدارة المعهد في عام 1931 ادخل العهد في مرحلة جديدة، اتسمت بالانفتاح على حقول معرفية متنوعة أبرزها علم النفس وعلم الاجتماع. ومع صعود الحزب النازي بزعامة (هتلر) الى الحكم في عام 1933 اضطر أعضاء المعهد إلى مغادرة ألمانيا لتعذر استمرار نشاطهم ذي الطابع الماركسي، وكون أغلبهم من اليهود، فكانت المحطة الأولى في العواصم الأوروبية، لكن امتداد التوسع النازي اضطرهم ثانية إلى مغادرتها في عام 1934 متوجهين إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث استقروا هناك حتى عام 1950، إذ عادوا إلى ألمانيا، وعرف حينئذ المعهد ونظريته النقدية لأول مرة بـ (مدرسة فرانكفورت).

في المنفى (1933-1950) تشكلت الملامح الرئيسية لمدرسة فرانكفورت من خلال جهود أبرز المفكرين فيها: (ماكس هوركايمر) و(ثيودور أدورنو) و(أريك فروم) و(هربرت ماركوز) الذين أنتجت أطروحاتهم الى محاولة البرهنة على أن عقلانية

بين الوطن (ألمانيا) والمنفى (الولايات المتحدة الأمريكية)، أسست مدرسة فرانكفورت مفاهيم أصيلة على مستوى البحث الفلسفي ذي الامتدادات التاريخية والاجتماعية والسياسية والنفسية، بهدف تجذير قيمة الإنسان بوصفه كينونه فاعلة والادائية التي تعمل في إطار أيديولوجي لتدعيم النظم السياسية القائمة وحكام هيمنتها على الجموع البشرية المهورة. اتساقاً مع تداخلات (حديثة سياسية)، كاندلاع الحرب العالمية الأولى، وقيام الثورة البلشفية، وإخفاق ثورة (روزا لوكسمبرغ) في ألمانيا، وظهور الستالينية في الاتحاد السوفيتي، والنظم الفاشية والنازية في إيطاليا وألمانيا، والتي تزامنت مع تطورات (نظرية -فلسفية) كالنقد الكانتي، ونقدية الجدل الهيغلي، وجدلية النقد الماركسي، وأعمال (لوكاش) و(كورش) و(رايخ)، نشأ تيار من المفكرين النقديين الشباب الذي عملوا على إيجاد صيغة تنظيم مؤسساتي للبحث داخل الجهاز الأكاديمي الجامعي في ألمانيا، لإخراج الأبحاث النقدية من كونها جهوداً نظرية فردية متفرقة غير قادرة على مواجهة أجهزة السيطرة والاستيعاب المنظم التي تملكها الدولة، بتوظيفها وفق قدرات تقنية متطورة للحفاظ على وجودها واستمراريتها.

(مدرسة فرانكفورت)

وانبثاق مفهوم الشخصية التسلطية

هذه الإشكال من العقلانية المزيفة ليست سوى أدوات لاستخدام العقل في تدعيم النظم الاجتماعية القائمة. وفي إطار البحث السايكولوجي -بعد أن لفتت أعمال (رايخ) انتباه مفكري هذه المدرسة إلى النتائج العقلانية الهامة التي توصل إليها التحليل النفسي بما يمكن أن تقدمه من اضاءات جذرية تغني البحث السيسوسولوجي -تركز اهتمام المدرسة البحثي على مسألة أساسية هي (سمات الشخصية فيما يتعلق بالسلطة) أو (الشخصية الفاشية)، بمعنى بنية الشخصية التي تصير الفرد سريع التأثر بالباعية الفاشية المضادة للديمقراطية. وبدأت بصياغة مشروع بحثي تحت إدارة (فروم)، أنتج دراسة بعنوان(الشخصية التسلطية)، قدمت بوصفها عملاً جامعياً في عام 1936، وذلك بعد أن كان مصطلح (التسلطية) Authoritarianism قد طرح من قبل (رايخ) للتعبير عن الشخصية الفاشية. وفي مرحلة تالية أصبحت تلك التحليلات الخاصة بالشخصية الفاشية (أو بالنزعة التسلطية) جزءاً من مشروع بحثي واسع النطاق سمي(دراسات في التعصب)، أسفرت عن صدور خمس دراسات في عام 1950، هي: (الشخصية التسلطية)، و (ديناميات التعصب)، و(معاداة السامية والاضطراب الانفعالي)، و(الاستعداد

للتريميد)، و(رسل الضلال). إلا أن الدراسة الأولى (الشخصية التسلطية) التي قادها (أدورنو) كانت أهم هذه الدراسات وأوسعها انتشاراً، إذ انتقلت بالبحث نقلة نوعية من ناحية البناء العملي المنهجي المتين، والتحليلات الدقيقة، والنتائج المثيرة، الأمر الذي جعلها تستثير كما هائلاً من البحوث لايزال مستمرا إلى يومنا هذا. ولعل من المفارقات اللطيفة أن (أدورنو) كان أصغر مفكري المدرسة سناً (ولد في عام 1903)، وأخزمهم التحاقاً بها (في عام1937)، وأعظمهم تأثيراً في تكوينها النظري على الصعيد النفسي والسيسوسولوجي والسايكولوجي والجمالي، إذ أصل في هذه المجالات مفاهيم أصبحت ملامح أساسية لمدرسة فرانكفورت: (الجدل السلبي) و (صناعة الثقافة)، و(أسس علم اجتماع الفن)، وشكل بحثه عن الشخصية التسلطية عاملاً جوهرياً في تأسيس (علم النفس السياسي). انطلق (أدورنو) وزملاؤه من بحثهم من فرضية مفادها أن الاعتقادات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تشكل نمطاً وأسماً متماسكاً يعبر عن نزعات عميقة في الشخصية، وفسروا البناء الشخصي لأصحاب الشخصية التسلطية من خلال ضعف (الآنا) التي تعوق بناء نظام قيمي سليم، مما يدفعهم إلى تعويض ذلك بالبحث عن مصادر خارجية يستندون

للمرشد (ورسل الضلال).

إلى أن الدراسة الأولى (الشخصية التسلطية) التي قادها (أدورنو) كانت أهم هذه الدراسات وأوسعها انتشاراً، إذ انتقلت بالبحث نقلة نوعية من ناحية البناء العملي المنهجي المتين، والتحليلات الدقيقة، والنتائج المثيرة، الأمر الذي جعلها تستثير كما هائلاً من البحوث لايزال مستمرا إلى يومنا هذا. ولعل من المفارقات اللطيفة أن (أدورنو) كان أصغر مفكري المدرسة سناً (ولد في عام 1903)، وأخزمهم التحاقاً بها (في عام1937)، وأعظمهم تأثيراً في تكوينها النظري على الصعيد النفسي والسيسوسولوجي والسايكولوجي والجمالي، إذ أصل في هذه المجالات مفاهيم أصبحت ملامح أساسية لمدرسة فرانكفورت: (الجدل السلبي) و (صناعة الثقافة)، و(أسس علم اجتماع الفن)، وشكل بحثه عن الشخصية التسلطية عاملاً جوهرياً في تأسيس (علم النفس السياسي).

انطلق (أدورنو) وزملاؤه من بحثهم من فرضية مفادها أن الاعتقادات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تشكل نمطاً وأسماً متماسكاً يعبر عن نزعات عميقة في الشخصية، وفسروا البناء الشخصي لأصحاب الشخصية التسلطية من خلال ضعف (الآنا) التي تعوق بناء نظام قيمي سليم، مما يدفعهم إلى تعويض ذلك بالبحث عن مصادر خارجية يستندون

إصدارات في الصحة النفسية

الصحة النفسية والعلاج النفسي

الكتاب عبارة عن دليل عملي علمي، يشتمل على ما يحتاجه المهتمون بالصحة النفسية من معلومات أساسية لأغراض التنمية والوقاية، وما يحتاجه المعالجون النفسيون من دليل قبل استقبال الحالة، وحين الفحص والتشخيص، وأثناء عملية العلاج النفسي وبعدها. الناشر: عالم الكتب/ 2005 المؤلف: حامد عبد السلام زهران عدد الصفحات: 88

التفزيون والصحة النفسية للطفل

يعرض هذا الكتاب آثار التفزيون، المباشرة وغير النفسية للطفل، وكيف يتعلم الطفل السلوك السوي والمرضي، ولماذا يتعرض بعض الأطفال دون غيرهم لآثار التفزيون الضارة. وتشمل موضوعات الكتاب: آراء علماء نفس النمو، وعلماء النفس الإكلينيكي المتخصصين في الآثار النفسية لوسائل الإعلام. الناشر: عالم الكتب/ 2000 المؤلف: عز الدين جميل عطية عدد الصفحات: 173

ارشاد الصحة النفسية لتصحيح مشاعر ومعتقدات الاغتراب

يختص الكتاب بالصحة النفسية الميدانية وطريقة الإرشاد والعلاج العقلاني، متبعاً استراتيجيات متعددة، ومستخدماً تقنيات متجددة في إطار إرشاد الصحة النفسية. الناشر: عالم الكتب/ 2004 المؤلف: سناء حامد زهران عدد الصفحات: 166

الأزمات النفسية الاجتماعية

يتناول الكتاب بالدراسة بعض الأمراض النفسية الاجتماعية، التي تحدث نتيجة الأعباء الاجتماعية، بوصفها مشكلة من المشكلات الخطيرة، التي تواجه الأسرة والمجتمع مع المدرسية، مع عرض لأهم هذه الأمراض في المجتمع أو الأسرة. الناشر: عالم الكتب/ 2003 المؤلف: إجلال مصد سوري عدد الصفحات: 288

الصحة النفسية في الطفولة المبكرة

يقوم الكتاب بتغطية تفصيلية لدور الصحة النفسية ودورها في تحقيق النمو الإنفعالي والاجتماعي في مرحلة الطفولة المبكرة، إلى جانب النمو الجسمي والعقلي والدراسي. كما يحدد الكتاب العلاقة بين الأخصائي النفسي والمعلم والأخصائي الاجتماعي والوالدين عندما يتعاونون على رعاية الأطفال. ويهدف الكتاب إلى تهيئة الناشئة إلى الإلتحاق بالمدرسة الابتدائية دون أية مشكلات نفسية. الناشر: عالم الكتب/ 2005 المؤلف: نيك عبد القاتم حافظ عدد الصفحات: 379

المؤلف: نيك عبد القاتم حافظ عدد الصفحات: 379

لؤيا خزعل جبر

لها في خلق بناء قيمي شكلي خاص بهم، وإن كان في حقيقة الأمر لا يعبر عن قدرة ذاتية حقيقية متميزة. وتتمثل خصائص الشخص التسلطي (حسب دورنو وزملائه) بالتقليدية، والالتزام بقيم الطبقة الوسطى المحافظة، والقبول غير النقدي بالسلطات، ورفض ومعاقبة الخارجين على القيم التقليدية، ومعارضة التفكير التأملي، والتمسك بالخرفاية والنمطية، وإسقاط الدوافع الانفعالية واللاشعورية على الخارج، والافتتان بالقوة، والتركيز المفرط على القضايا الجنسية. ولأجل قياس التسلطية، قام (أدورنو) وزملاؤه ببناء (مقياس الفاشية) الذي يعرف اختصاراً بمقياس (F)، وهو من الدراسات النفسية الاجتماعية في حقول التعصب والدوغماتية والتسلطية والتصلب.

وقد تركز بحث (أدورنو) وزملائه على (المحتوى) الأيديولوجي للتسلطية، الأمر الذي حدا براميلتون زوكيتش) أن يعمل على تطوير هذا المفهوم بتناول (البناء) المعرفي للتسلطية، مطلقاً عليها مصطلح (الدوغماتية)، ومصمماً مقياساً لقياسها عرف بـ(مقياس الدوغماتية) أو مقياس (D)). مما أدى الى تعميق البحث في هذا الميدان.

المؤلف: نيك عبد القاتم حافظ عدد الصفحات: 379



المؤلف: نيك عبد القاتم حافظ عدد الصفحات: 379